مدينة الجنون

عبد الرحمن سيد يوسف علي

تدور قصتنا حيث يذهب بنا الزمان إلي إحدى العصور القديمة، وفي إحدى الممالك التي سميت بالمملكة الملعونة، وكانت لعنتها وباء لعين أصاب ثلث سكان أرضها، تلك الأرض التي انفجر فيها الصراع بين الرحمة والموت.

في حشد الملك ووسط الجواري والكنوز التي تحيط بعرشه، ووسط ضحك وقهقهات خليعة، وأيادي تمسك الكؤوس التي روت لحية الملك وحاشيته، يدخل جندي يدك الأرض بقدمه وحربته وهو ينحني ثم يعتدل وقد تنبه له كل من في الغرفة وهو يقول: سيدي الحاكم مولاي الطبيب يريد الإذن بالدخول.

يشير له الحاكم بيده فيفهم الجندي بسماح الملك فيغادر حجرة العرش لينادي الطبيب الواقف خارجًا.

يدخل الطبيب شاب يبدو عليه الإجهاد ينحني وعيناه غاضبتان مما يراه في حشد الملك يرفع رأسه وهو يقول: سيدي قد أصاب الوباء ثلث سكان مملكتنا ونحتاج حل سريع.

الملك يضحك ويبدو غير مبالي وهو ينظر لجارية بجانبه لا ندري أسكرته

عيونها أم الخمر الذي تسقيه إياه: أي مرض ذلك الذي تتحدث عنه.

الطبيب صارخا ترتج قاعة العرش من صوته: احضروا مشروبا لإيقاظ الملك.

يسرع الخدم بإحضار مشروب وأثناء تناول الملك له بمساعدة خدمة، يتابع الطبيب كلامه: انه الوباء الذي اجتاح بلادنا، انه الوباء الذي يصيب الدماغ فيصبح المصاب في مثل حالة السكران ويقول في سره وهو ينظر بتقظظ أو في مثل حالتك أنت وحاشيتك، انه مرض الجنون يا سيدي، يصمت وقد تشتت ذهنه وهو يفكر ويقول لنفسه ذلك المرض اللعين الذي أصاب ابنتي وجعلني لا أتذوق النوم أو الراحة لأيام.

يتثاءب الملك وهو ينظر لجاريته وكأنه لا يلقي بالا لما يقوله الطبيب فيقول: حسنا...حسنا هذا يكفي، لقد أمرت ببناء مدينة كبيرة في الصحراء خارج مملكتي وإحاطتها بسور عملاق تكون مقبرة لهم في آخر أيامهم ومن سيحاول الخروج سيقتله الحراس.

الطبيب وهو مصدوم: لكن أيها الملك المرضي يحتاجون لعناية وتركهم وحدهم يعني فنائهم، يعني تمزق الأسر ومفارقة الأحباء.....

يقاطعه الملك ويقول: كل ما تقوله لا يهمني، ما يهمني هو سلامتي اقصد سلامة مملكتي، حتى أنت لا أريدك أن تطأ قصري بعد اليوم حتى لا تصيب حاشيتي بالمرض، وسيذهب كل مرضاك غدا إلى مدينة الجنون، وسيلحق بهم كل فقير لا يدفع ضرائبه ليكون الجنون هو العقاب الأعظم.

الطبيب: حسنا سيدي، لكني سأغادر مع ابنتي لتلك المدينة، ثم يتجه للمغادرة دون أن يحيي الملك كأنه قد كفر بحكمه.

في الطرقات انتشر المنادون معلنون ومكررون قرارات الملك وهم يقولون إن من سيذهب منهم مع مجنون فلن يعود، يرتسم الفزع على وجوه سكان المملكة وسط صراع داخلهم أيتركون أحبابهم للموت وحدهم يخاطرون بعدم رؤيتهم من جديد أم يخاطروا بعقولهم في مواجهة هذا الوباء تضطرب عقولهم وقلوبهم وهم ينظرون إلي أهلهم المصابون.

يجتمع الطبيب بزملائه وتلامذته ليعرف رأيهم هل سيبقون في مملكتهم الملعونة من أجل أموال الحاكم أم سيرحلون معه لمدينة الجنون ليقوموا بواجبهم في رعاية المرضى وعلاجهم.

يقف الطبيب وعيناه الحزينتان لم تستطع أن تخفي آلامه فسقطت منهما دموعه وهو يقول: لقد أعجزنا ذلك المرض الغريب الذي لا نعلم عنه شيء

إلا انه ينتشر رغم كونه غير معدي، عجزنا عن أن نعرف أسبابه وعجزنا عن إيجاد علاج له، لكننا لم نيأس، سأحاول ما تبقى من عمري كي أجد العلاج، لقد أحببت الطب وقدست إراحة المرضي من آلامهم واليوم ابنتي تتألم ولن اتركها وحدها، سأذهب معها لمدينة الجنون، ومن كان طبيبا حقيقيا سيلحق بنا.

يهم أن يغادر والحزن يسيطر على حالته وسط صمت الجالسين وعندما يبدأ في الذهاب، يكسر حالة الصمت طبيبا وراء آخر ينادونه: انتظر سنذهب معك، يستدير وعلامات الدهشة على وجهه وعيناه يملؤهما التساؤل لماذا؟

الأطباء يقفون مبتسمون عدا واحدا مازال جالسا، ويبدؤون في التكلم واحدا تلو آخر، الأول: سأذهب من أجل أمي.

الثاني: سأذهب من اجل زوجتي وأولادي الذين قرروا التمسك بها واخترت ذلك معهم.

الثالث: سأذهب من أجل مرضاي الذين سيتركهم أهلهم يغادرون بمفردهم.

الرابع: سأذهب من أجل ألا تأخذ المجد وحدك من أجل أن نجد العلاج سويا.

يقف الطبيب الذي كان جالسا ويتوجه للطبيب ولا تظهر على وجهه أي

ملامح وهو يقول متحيرا: لم أتصور يوما أن نقف في ذلك الموقف، أن ندافع عن المجانين! لا اعرف من المجنون؟ أهو ذلك العالم القاسي الذي قرر معاقبة المجانين على شيء لم يرتكبوه؟ أم هم المجانين أنفسهم، أم انه أنا لأنني قررت الذهاب معكم.

يبتسم الطبيب وكل الأطباء ويهللون ويحتضن كلا منهم الآخر ويستعدوا للرحيل وتجهيز احتياجاتهم وأمتعتهم.

يبدأ الجنود في تقييد المرضى بالقيود ويسوقونهم كالبهائم وهم يضربونها بالسوط دون رحمة لندرك أن البهائم أحيانا هي من تضرب لا من تُضرب، ليجرح كثيرون ممن يعترض أو يتعرض لذألك وهم يقولون: هذا بأمر الملك.

تفتح أبواب المدينة الجديدة المسماة مدينة الجنون وقد وقف أمامها المرضي والجند يسوقونهم، وقد شكل بعضهم جدارا بشريا بالدروع والأجساد يمر الأهالي بينه متجهين لداخل المدينة ويتبعهم الأطباء والأهالي وهم يحملون أغراضهم حيث اختاروا مرافقة عائلتهم، لترحب المدينة الجديدة بثلثي أهل المملكة ثلث من المرضى وثلث من الأهالي الذين تمسكوا بأحبابهم وبالأمل

إلى آخر أنفاسهم، يدخلون وقد فكوا الأغلال عن المصابين ليقتادوهم لداخل

المدينة وعيونهم تودع أرضهم لتقابل أرضا جديدة، بقي في المدينة ثلث من من لا يهوي المخاطرة ولا يفكر إلا في نفسه، بقي ثلث من الطامعين الذين قرروا أن يرثوا المغادرين ويستحوذوا على أرضهم.

في قاعة العرش يقف احد الوزراء ينحني للملك وهو يقول: مولاي لقد غادر ثلثي أهل المملكة وبدأ الثلث المحيط ببحيرة القصر في اخذ ممتلكات الثلثين.

يبتسم الملك ويقول: اعلم ذالك ولدي الحل، ضاعفوا ضرائبهم لثلاثة أضعاف، ومن لم يدفع فأرسلوا للجنون، ما فعلته كان أمرا لابد منه من اجلنا نحن فكما تعلمون أن بحيرة القصر على وشك النفاذ ولذلك سنلجأ إلى ملئها من بحيرة المملكة الرئيسية وهذا سيؤثر علي أهالي المملكة الذين يموتون عطشا وعندها قد يقتحمون قصورنا ولكي نكون في أمان كان لابد إبعاد المجانين وبعد رحيل أهلهم معهم أصبحنا أكثر أمانا وأكثر مالا، يضحك ويهلل كل من في الغرفة لقرار الملك.

يدخل المجانين وأهلهم وأغراضهم لتلك المدينة الكبيرة الموحشة ذات الصحراء الممتدة والجبال الشاهقة أرض مجهولة كمرضهم لم تكتشف بعد وكان مصير الأهالي اكتشافها ومعهم الأطباء يقفون أمام عالمهم الجديد وتبدأ هواجسهم في التفكير ماذا سيفعلون عندما ينتهي طعامهم ومن أين سيحصلون

على الماء، يدرك البعض منهم أن مدينة الجنون سميت بذلك ليس لأنها للمجانين لكنها ارض وحده المجنون الذي سيعيش فيها.

يقف الطبيب وسط الحشود ويحاول تهدئتهم يرفع صوته قائلا: لا تقلقوا طالما نحن معا طالما بقينا يدا واحدة سنعمر تلك الأرض سنعيد إحياءها كما أحيا أهلنا أرضنا، لتصبح وطننا الجديد الوطن الذي يفخر به أبناءنا كما يفخرون بنا لأننا بنيناه، سيفخرون بأننا أتينا هذه الأرض فحولناها من ارض الجنون إلى أرض العدل والعدالة، والآن على الأطباء معالجة جراح المصابين من السوط.

يهدئ الأهالي قليلا وقد حمسهم كلام الطبيب ويعالج الأطباء جراح المصابين، إلي أن يسأله أحدهم: لكن من سيحكمنا؟

فيرد الطبيب والجميع ينظر إليه وينتظر إجابته فيرد وهو يفكر: وماذا فعل لنا الملك حتى نختار ملكا جديدا يفرض علينا الضرائب ويضربنا بالسياط ويهرب من المصيبة بتجنبها بدلا من حلها ويتنازل عن شعبه عندما يكونون في أمس الحاجة له، يتكلم الكل مع بعضهم وهم يهزون رؤوسهم موافقين علي ما يقوله الطبيب، يسأله آخر إذا ماذا سنفعل؟ فيجيب مبتسما سنحكم جميعًا: سيقرر رأي الأغلبية مصيرنا في كل شيء وبذألك سيصبح العدل هو

الملك لأننا في ارض الجنون لا نحتاج لملك.

يزداد حماس الجميع بذألك وقد رضي كل منهم بالأمر وشعر داخله بأنه ملك سيحدد مصيره بنفسه، يبدون في إدخال المرضى للمنازل القليلة المبنية. ثم يعودوا للتجمع ويقرروا تقسيم أنفسهم لمجموعات للبحث عن الماء والطعام وعن مكونات طبية لتنشيط الدماغ ليستخدموها في إيجاد علاج ويقرروا أن كل شخص ماهر في شيء يجب أن يقوم به وأن يتعاونوا جميعا في كل أمر، يبدأون في التفرق لمجموعات صغيرة كل منهم له دوره فيها ويبدؤون في الانتشار وبدأ العمل، يلاحظ بعضهم بعض الماعز من بعيد: فيقول ها نحن قد وجدنا طعامنا، فيتبعون الماعز حتى يجدوا قطيع كبير منها ويجدوا نبع ماء تشرب منه الماعز، بينما الطبيب قد صعد إلى إحدى التلال وهو وبعض الأطباء يبحثون عن الأعشاب يهللون فرحا حينما يجدون بعض الأعشاب النادرة المنشطة والمنبهة للدماغ والدورة الدموية.

يبدأ الأطباء في صناعة العلاج وتبدأ البلدة تدريجيا في الحياة وبدأ الزراعة من مياه النبع والآبار التي تم حفرها ويقوم البعض ببناء حظائر للماعز لتربيتها بجانب بعض المواشي التي أتوا بها من أرضهم، ويبدأون في بناء منازل أكثر، وبعد مرور شهر وعدة محاولات فاشلة أخيرا أعطي العلاج

تأثيره وبدأت الحالات بالتعافي وبدأت الفرحة تتواجد في النفوس عندما يختفي الجنون ويعود كل شخص إلى رشده يعود ليعانق كل شخص حبيبه الذي افتقده يعود الطبيب ليحتضن ابنته وهي معافاة تفر الدموع من عيناه ووسط هذه الفرحة يتم إعلان هذا اليوم هو يوم الجنون الذي تخلصت فيه المدينة من المرض.

بحث الأطباء عن سبب المرض حتى لا يتكرر يقومون بالدور الذي كان على الملك القيام به وبالكلام مع المرضى، أخبرهم احدهم انه رأي كره زرقاء سقطت من السماء في البحيرة في وقت الليل، وانه لم يخبر أحدا حتى لا يتهم بأنه من فعل ذلك ومن وقت أن شرب كعادته حدث ما حدث.

علي النقيض أصبحت مملكتهم السابقة مملكة ملعونة حيث استمر فيها المرض في الانتشار بعدما اتجه الأهالي للشرب من البحيرة الرئيسية التي حولت مياهها لبحيرة القصر فصار عقاب جشهم الجنون ولم يجدوا طبيبا يداويهم، واستمر فيها العناء واستمر الجشع يحصد أموالهم لصالح الملك الذي صار وحيدا بين أمواله أصبح ملعونا في مملكته الملعونة حتى شرب من البحيرة فصار مجنونا يحكم مجانين.

بدأت مدينة الجنون في الازدهار بتضاعف أعداد العمال المعافين تنتشر

المحبة بين أهلها مع العمل الشاق لتتحول لمدينة فاضلة لم يبقى من الجنون فيها غير اسمه.

***